فتاة من حائل

تأليف محمد عبده يماني
عرض وتحليل فاضل السباعي

١ ـ مقدمة

يشغَل الأديب محمد عبده يماني ، في ساحة القصة والرواية السعوديتين ، منزلةً مرموقة ، بين رصفائه الذين سبقوه في الكتابة ، عبدالقدوس الأنصارى * ، وأحمد قنديل ، وأحمد السباعي ، وحسن عبدالله القرشي ، وبين الذين عاصروه أو لحقوا به أمثال : حامد دمنهوري ، وإبراهيم الناصر ، ومحمود عيسى المشهدي ، وغالب حمزة أبو الفرج ، ومحمد علوان ، وحسين علي حسين ، وجار الله الحميد ، وعبدالعزيز مشري ، وعبدالله جفري ، وتلك الكوكبة الصغيرة من الروائيّات السعوديات : سميرة خاشقجي ، وهدى الرشيد ، وأمل شطا ، ـ على قلّة ما كتبت الأخيرتان ـ وغيرهم . . .

ورواية محمد عبده يماني « فتاة من حائل » هي ، في علمي ، ثاني ثلاثةِ أعمال إبداعية صدرت له في بضع السنوات الأخيرة ، تقدّمتْها المجموعةُ القصصية « اليد السفلى » ، وتلتها مجموعتُهُ الجديدة « جراح البحر » **. وقد صدرت روايته هذه عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) ، في عاصمة المملكة العربية السعودية ، في كتاب تحقّق فيه مستوى ملحوظٌ من الأناقة ، في الطباعة والاخراج ، وفي لوحة الغلاف واللوحات التزيينية الملوّنة الثماني التي تضمّنتْها صفحاتُهُ البالغة ٣٦٢ من القطع الكبير .

وأعترف بأني لم أسمع بهذه الرواية إلا من خلال ما كتبه الأديب العراقي ، المجمعيّ ، الدكتور يوسف عزّالدين ، في دراسة قرأتُها في المجلة الفصلية التخصّصية السعودية : « عالم الكتب » ***، فحبّب إليّ حديثهُ الشيِّق عنها أن أستحصل على نسخة منها .

---

* صاحب أول رواية سعودية ، « التوأم » ، وهي بالأحرى قصة مطوّلة من ٧٧ صفحة ، طُبعت في دمشق بمطبعة الترقي بالقيمرية عام ١٣٤٩ هـ ، ١٩٣٠ م .

** للمؤلف ، كما هو وارد في ختام روايته ، مؤلفاتٌ أخرى ، علميّة ، هي : « الجيولوجيا الاقتصادية » ، « المعادلة الحرجة » ، « نظرات علمية حول غزو الفضاء » ، « الأطباق الطائرة حقيقة أم خيال » .

*** المجلد الأول ، العدد الرابع ، ربيع الآخر ١٤٠١ هـ فبراير ١٩٨١ ، « عدد خاص بالقصة في المملكة العربية السعودية » ، دراسة عنوانها : « فتاة من حائل لمحمد عبده يماني » .

فشاقتني ، وأنا أطالعها ، الأحواءُ الروائية التي تحمل القاريء يستروح أنسام الحياة في جزيرتنا العربية ـ عليلةً ، وساخنةً ، ولا أقول هنا : وباردة ! ـ سواء في أثناء تحرُّك الأبطال وهم في وطنهم ، ما بين الرياض ومكة المكرمة وحائل ، أو بعد انتقال بطلي الرواية المحوريّين ، « هشام » و « هيا » ، إلى خارج الوطن ، حيث هبَّت عليهما ، هنالك ، رياح . . . باردة ، هي ، بعد كل شيء ، محصِّلةٌ لما نشأ عليه في الوطن من عادات وتقاليد !

٢ ـ كل شيء يسير على ما يرام !

انقسمت الرواية ، بين يدي مؤلّفها ، إلى جزأين متقاربين طولاً [1] ، سارت أمور البطل ، في نصفها الأول ، « على ما يرام » ، بكل ما في الكلمة من معنى !

فبطلنا « هشام » . . . ما إن أُعلنت نتائج امتحانات الكلية وغدا « مهندساً » ، ثم قام في اليوم التالي باجراءات استحصاله على وثيقة النجاح ، حتى جاءته الوظيفة المناسبة تسعى إليه على قدميها ! كيف ؟ إن خاله « علي » ـ الذي كان له يوماً دورٌ في اختيار ابن الأخت للهندسة دراسةً جامعية ـ سمع ، وهو في مكة المكرمة ، اسم هشام يُقرأ في الاذاعة بين أسماء الناجحين ، فما توانى عن القدوم إلى الرياض ، للاجتماع به ، وفي صحبته صديقان من كبار المهندسين الذين يحملون « مسئوليات مرموقة في وزارة الدفاع » (الصفحة ٣٥) . وفي صالة « فندق اليمامة » ، يعرض الرجال الثلاثة ، على المهندس المتخرّج حديثاً ، فرصةَ الالتحاق بالقوات المسلّحة ضابطاً برتبة ملازم أول ، مبيِّنين له مزايا العمل ، ماديةً ومعنويةً ، ومنها الابتعاث إلى الخارج لاستكمال التحصيل العالي . . . فلا يكون من هشام ، الطموح ، إلا الاستجابة .

وفي « حائل » ، حيث عُيِّن بطلنا في أعقاب اتِّباعه الدورةَ التدريبية العسكرية ، تتوثَّق صداقةٌ متينة بينه وبين زميل العمل « ناصر ، الذي لم يكن يفترق عنه ، في النهار والليل ، أكثر من ساعات معدودات . . » (ص ١٠٣) ، ويقوم بزيارات له في بيته . ويلمحها ذات يوم ، فيذوب حبّا ! وفيما هو يُعاني المخاوف من أن تكون هذه الفتاة متزوجةً أو مخطوبة ، أو مجرد زائرة للبيت ، يأتيه صديقُه الحميم ليعرض عليه بصراحة نادرة : « إنني أقترح عليك أن تتزوج أختي هيا » ! (ص ١١٢) . ثم ما يلبث هشام أن يتأكد من أن « الأخت هيا » ، ما هي إلا تلك الفتاة عينها ، التي لمحها في ذلك اليوم وذاب بها حبّا . وتكون الخطبة . وفي الليلة التالية ـ وليس أبعد ـ يتمّ عقد قران ، سهلٌ مُيسَّر ، مثل شربة ماء ، لا غُصَّةَ ، لا عقباتٍ ، لا متاعبَ . فوالد العروس كان رجلاً مستنيرا ، لا يحبّ الحفلات ، ويرى « أن مثل هذه الأمور يجب أن يوضع لها حد (. . .) والله تعالى لا يحب المسرفين . . » (ص ١٢٩) .

وما إن يودّع هشام ، في مطار حائل ، أباه وأمه وأخواته الذين كانوا قد جاءوا للاحتفال بزواجه ، ويتوجّه عائداً إلى مكتبه ، حتى كان « قائد المنطقة » يطلبه ، ليهنّئه بزواجه ، ثم يزف إليه هذه البشرى : « منذ الآن سوف تُقيم في إحدى فلل الضباط . لقد استأذنت سمو الوزير وجاءتني برقيةٌ بالموافقة على ذلك » . وقبل أن يعثُر « عريسنا » الهنيّ ، على الكلمات المناسبة للتعبير عن عظيم امتنانه ، كان رئيسه قد عاجله ببشرى ثانية : « تكريم آخر من سموّ وزير الدفاع والطيران للمجدّين العاملين . . إنه هدية زواجك : أمر بسيارة جديدة ! وكيف ـ بالله ـ لا يلتهب هشام ، وهو خارج من مكتب قائد المنطقة ، « حماسة ورغبة في أن يتفانى في عمله إلى أقصى حدّ يستطيعه ليكون في مستوى ما نال من ثقة وتكريم » ؟ (ص ١٥٠ و ١٥١) .

(١) ١٧٠ صفحة و ١٨٠ .

ويوم زواج هشام من هيا الطيبة ، كان قد مضى عليه ، وهو في « الخدمة » ، أكثرُ من سنتين ، وما رأيناه خلال ذلك يحدّث النفس بأمنيته القديمة : الابتعاث للتحصيل العالي ! وقد بات جديرا بأن يزداد نسياناً لها بعد أن منّ الله عليه بهذه الزوجة الصالحة . ولكنّا نرى هيا ، الذكيّة ، تقوم هي بـ « التفكير » نيابةً عنه في مشاريعه المستقبليّة . إنها لتُسائله ، ولما يكد يمضي شهر واحد على زواجهما : « لماذا لا تسعى إلى الابتعاث والحصول على شهادات أعلى ، تفتح أمامك أبواب المستقبل ؟ (. . .) إنني لا أقبل أقلّ من الدكتوراه » (ص ١٥٤ و ١٥٥) . وإذ يدخل ، في اليوم التالي ، على قائد المنطقة معرباً له عن رغبته ، سرعان ما يتلقّى هذا الرد المبهج : « هذا من حقك يا هشام . . ما دمت قد أثبتَّ كفاءةً وتفانياً في عملك » (ص ١٥٧) .

وبعد أن يتقرّر الابتعاث إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويقوم هشام باستكمال اجراءاته في العاصمة ، يتراءى له ، بعد اجتماعه بنفرٍ من زملاء الدراسة ، أن يغادر الوطن ، في عامه الأول ، دون زوجته ، ضماناً لاتقانه اللغة ، لأن اصطحاب المبتعث لزوجته ـ حسب قول أحدهم ـ يضطرّه إلى محادثتها بالعربية فيفوت بذلك على نفسه « الفرصة في التفكير الدائم باللغة الانجليزية » (ص ١٧٣) . ولسنا هنا ، بصدد مناقشة بطلنا في قراره هذا (٢) ، ولكني أريد أن أُبيّن أن القرار ، على قسوته البالغة ، لم يُقابل بغير الرضا والطاعة والتسليم من قبل زوجة كانت هي المحرّضةَ لزوجها على العمل باتجاه الابتعاث ، وهي ، قبل هذا وذاك ، « عروس » في أشهر زواجها الأولى ما تزال !

ألا ما أجمل ما أعدَّ المؤلّف ، في نصف الرواية الأول ، لبطله من حياة ! كان كل شيء يسير على ما يُرام (٣) . أُطلتْ تُغْط [illegible] او يُعطى ـ هشام ـ [illegible] أن يطلب . الآمال تتحقّق من [illegible] عناء أي عناء : وظيفة . عروس ، [illegible] بعثة . . . وعندما يتعسّف بطلنا ـ الذي [illegible] في تدليله ـ راغباً السفر إلى الخارج وحيداً . [illegible] لا تبدي معارضة !

لقد بدا لنا « العالَمُ الروائي » ، في هذا النصف الأول ، منبسطاً سَهْلا ، لا مرتفعات ، أو وهاد ، أو منعرجات . والشمس فيه غيرُ حامية ، حتى في وَضَح النهار . وليس من عَتْمةٍ تهبط في الليل ، فالقمر بدرٌ دائما ، والأبطال يتحرّكون في ضوئه الفضيّ سعداء . وهكذا انعدمت ، في هذا الجزء من الرواية ، الحاجة إلى الصراع ، والنضال ، والتحدّي .

على أن الأمور أخذت ، بعدئذ ، تنحو منحى آخر . فما إن أقلعت الطائرة ببطلنا بعيداً عن عشّ الزوجية ، حتى أطلّ عليه ، وهو مسترخٍ في جلسته ، « وجه هيا الحبيب في آخر مرة رآها فيها وهو يصعد الطائرة التي أقلّته من حائل إلى جدّة » (ص ١٨١) . ثم أطلّ عليه « ثانية بتلك الابتسامة الشجاعة التي كانت آخر ما رآه منها ، ورنّ صوتها العذب في أذنيه : « أنا في انتظارك . . كان الله معك » . . » (ص ١٨٢) . وفي لندن ، التي شاء أن يتوقّف فيها بضعة أيام وهو في طريقه الى أمريكا ، راح « يجبر نفسه على ألا » يستمتع « بهذه المشاهد (شوارع لندن وحدائقها ومبانيها العريقة) ، وفاءً منه لذكرى زوجته » (ص ١٨٧) . وما هي إلا أيام حتى كانت « الوحدة قد ملأت قلبه ، والوحشة تملك عليه فؤاده ، فهو لم يسمع كلمة عربية واحدة منذ أن نزل من الطائرة السعودية ، كما أنه لم يلتقِ أبدا بأي

(٢) الذي قام ، وهو في زيارته للعاصمة ، بإبلاغه لزوجته لزوجته هاتفيا . ولم يشفع لها ـ لرجوعه عنه ـ قولها على الهاتف بوداعة : « إذا كان السبب هو مجرد رغبتك في عدم الحديث معي باللغة العربية ، فإنني أعدك بأن أرعاك في بلاد الغربة من غير أن أفتح فمي بكلمة واحدة » !! (ص ١٧١)

(٣) عندما أخذ هشام في متابعة اجراءات انتسابه إلى القوات المسلّحة ، في أوائل الرواية ، وردت في خاطر البطل العبارة التالية « وسار كل شيء على ما يرام » ! (ص ٥٦) .

عربي ، ولم ير أي وجه عربي ، الأمر الذي جعله يشعر بشوق عظيم لأن يخاطب أي إنسان بلغة بلاده وأن يرى أية سحنة عربية . . . » (ص ١٨٩) (٤) .

وههنا . . . كان قد آن للمؤلف محمد عبده يماني ، أن يبدأ بأن ينسج بقلمه ، على نَوْلٍ آخر ، عالَماً روائيّاً مختلفاً ، قد حَفِلَ بعوامل التحدّي ، فاحتدم فيه الصرائع وتشعّب .

٣ ـ « بات » والتجربة

إذا تجاوزنا ، في هذا النصف الثاني من الرواية ، تلك الصفحات التي أتاح فيها المؤلفُ لقلمه الوصّاف أن يُسجّل مشاهداتِ بطله ، منذ أقلعتْ به الطائرةُ من « جدّة » حتى وصوله إلى « معهد اللغة » في بلدة « ماونت بلزانت » ، وهي خمس وثلاثون صفحة (بدءاً من الصفحة ١٨١) (٥) . . . نرى أن « هشام » قد قضى في هذه البلدة « مرحلتين » متعاقبتين ، تفصل بينهما إجازةُ صيف ، قام فيها بزيارة للوطن ثم عاد مصطحباً زوجتَهُ إلى « ماونت بلزانت » .

فترتان خِصْبتان ، خرج فيهما بطلُنا من أجواء وطنه الحنون ، متعرِّضاً لصدماتٍ متفاوتةِ الرَّجّةِ والقوة ، بدءاً من الشعور بالوحدة والاستيحاش وانتهاءً بتلك العلاقات الجديدة التي أنشأها مع أجانب ، من الجنسين ، يختلفون عنه في العادات والمشارب (٦) .

بدا لنا هشام ، في أولى هاتين المرحلتين الغنيّتين بالتجارب ، وهو يدخل « غرفته في المسكن المخصص لطلبة معهد اللغة (فيجد) زميله الأميركيّ جالساً على طرف سريره يتصفّح إحدى المجلات » (ص ٢١٦) . هذا الشاب ـ الأشقرُ ، المُنَمَّشُ الوجه ، الفارعُ القامة ـ يسأل هشام ، بعد أن يعرف أنه من المملكة العربية السعودية : « يقال إنكم تجدون البترول في أي مكان تحفرون فيه (! . . .) كم بئرا من البترول تملك ؟ » (ص ٢١٧) ، ثم يقدّم لبطلنا كأسا : « لنشرب نخب تعارفنا » ، فيقول هشام : « أشكرك . . ديني يُحرّم عليّ شربَ هذا الشيء . . أنا مسلم » (ص ٢١٩) (٧) .

ثم يكون على هشام أن يُحافظ على ما سمّاه ، بحقّ ، « روحه الخاصة » ، لا سيما وهو « يرى إلى الاختلاط غير المقبول ما بين الجنسين والاستخفاف بالقيم الأخلاقية » ، فيردّ بتحفّظ « تجاه المحاولات التي بذلها زملاؤه الأميركيون لاجتذابه إلى محيطهم » (ص ٢٢١) .

ولكن ذلك لا يعصم « هشام » من أن يجد نفسَهُ ، ذاتَ ليلة ، وقد استجاب لاغراء شريكه في الغرفة « توم » هذا ، فيُرافقه إلى إحدى السهرات الليلية ، حيث « عشرات الشباب ، من الجنسين ، يمرحون ويرقصون » ، ويتركه صديقُهُ ، فيلتفّ حوله « عددٌ من زملائه وزميلاته في الفصل (وهم يُطلقون صيحات) الدهشة والفرح » ، ويدورون حوله وهم يغنّون (ص ٢٢٣) . وما إن ينفضّوا عنه حتى تقترب منه فتاةٌ أمريكية (٨) وتدعوه إلى الرقص . يعتذر لها ، فتسأله : « هل أنت حزين ؟ » (ص ٢٢٦) . فيجيبها دون مداورة : « بصراحة أنا لا أعرف الرقص . . » ! فتصيح مُهلّلة : « هيه . . تعالوا انظروا . . هذا شاب لا يعرف الرقص . . » ! (ص ٢٢٦ و ٢٢٧) . وبدا

---

(٤) هل تقول : « هذا جزاؤك ، يا هشام ! » ؟

(٥) لسوف ترِدُ إشارة الى هذه الصفحات ، في مبحث « الفن الروائي » ، أقول فيها إن هذه الصفحات هي « قطعةٌ من أدب الرحلات » ، ممتعةٌ ومفيدةٌ في آن .

(٦) لن أقول : « ومروراً بدراسة الماجستير الصعبة » ، لأننا لم نَرَ « هشام » يُشير مرةً واحدة إلى دراسته هذه التي من أجلها اغترب !

(٧) كأني بالمؤلف لم يشأ أن يُورد لفظ « الخمر » على لسان بطله ، فجعله يُشير إليه بكلمة « الشيء » !

(٨) سيلاحظ القارىء ، طوال هذه الدراسة ، أني أكتب « أمريكا » و « أمريكي » باثبات « الياء » بعد « الراء » ، لا قبلها كما يفعل المؤلف .

أن هذه الفتاة معروفة من لداتها « بسفاهتها » ، ذلك أن إحداهن تُخاطب « هشام » بصوت مسموع : « إنني أعذرك يا صديقي . . فلو كنتُ شابا لادّعيتُ الكساح كيلا أضطر لمراقصتها » ! (ص ٢٢٧) .

إن هذا « الموقف » ، الذي يُشكّل بدايةَ الاحتكاك بين بطلنا القادم من نُجوم الصحراء العربية وبين مظاهر الحياة الاجتماعية في العالم الجديد ، كان لابد من أن تتلوه سلسلةٌ من المواقف يُمسك بعضُها برقاب بعض ، وإن منها ما يَتّسم بالطرافة أو الغرابة .

لقد تبيّن لنا ، أن وراء هذا الذي وقع لهشام في ليلته تلك ، كان يختبىء مُساكِنُهُ في الغرفة « توم » . ويحتدم الحوارُ بين الشابين في الليلة ذاتها : « كيف ترفض مراقصة تلك الفتاة التي يتزاحم عليها نصف شباب الجامعة ؟ » ، وأيضا : إنني أحاول أن أفتح لك أبواب المجتمع . . وأُعرّفك على نواح لا تعرفها من الحياة الأميركية » (ص ٢٢٨ و ٢٢٩) . وهشام يقول بهدوء : « أشكرك على هذا الاهتمام . . وأظنك لاحظت أنني لا أرغب في ولوج هذه الأبواب » . . . وينتهيان إلى أن لكل منهما مفهوماً مختلفا (ص ٢٣٠) .

وتبدأ « ردود الفعل » لدى بطلنا العربي ، الوحيد في مضماره . يدخل ، في اليوم التالي ، إلى « الكافيتريا » [٩] ليتناول طعامه . فلا يعثُرُ على كرسي حول مائدة من الموائد ، ويرى عدداً من شباب حفلة اليوم السابق ، ويلمح كذلك « فتاة الأمس » [١٠] ، فتبتسم له . يقترب من « مائدة منعزلة . جلست إليها بضعُ فتيات من أحدى دول أمريكا اللاتينية » (ص ٢٣١) ، مستأذناً بالجلوس ، فيُجبَنه بالموافقة دهشات . والواقع ، أن « هشام » ما « خطر له أنه سيجد في نفسه الجرأةَ على أن يتقدّم بتلك البساطة إلى مائدة الفتيات » . . . وفي ذلك تقول الرواية مُعبِّرةً عن وجدانه : « كان تحدّياً ساذجا وبسيطا ، ولكنه هزّه هزّاً حتى الأعماق (. . . المهمّ) أنه أثبت للآخرين أنه إنسان طبيعي مثلهم ، وأزال من أذهان من حضروا « حفلة الأمس » [١١] ما حاولت تلك الفتاة الأميركية أن تصفه به من الغرابة والاختلاف عن الآخرين » ! ويعد الطعام « نهض مستأذناً من زميلاته بلطف (. . وخرج) دون أن يلقي نظرة واحدة على ما حوله » (ص ٢٣٢) . والفتاة تلك « تمسح شفتيها بالفوطة على عجل ، مُنهيةً بذلك طعامها ، ثم تحمل حقيبة يدها بسرعة وتتجه إلى الباب » (ص ٣٣٣) .

ثم نعلم أن الفتاة ـ واسمها « بات » (تصغير : باتريشيا) ـ إنما أسرعت لتلحق ببطلنا المحبوب . إنها لتطرق عليه بابَ غرفته ، و « على شفتيها ابتسامة مرتبكة ، وفي عينيها استعطاف خفيّ » ! وبدا لنا بطلنا ـ يا للعجب ! ـ « أشبهَ بطريدة أطبق الصيادُ عليها شباكه » (ص ٢٣٣) ، حتى ليضطر إلى أن يَدَعَ الباب مفتوحا ! تعتذر « بات » له « عن الاحراج الذي سبّبته لكَ أمس » . ثم تعلمه : « كتبتُ إلى أهلي عنك » (ص ٢٣٥) . . . ذلك أن بطلنا العربي ، الجذّاب ، كان قد استرعى انتباهَها ، وأوقعها « بشباكه » وهو لا يدري ! [١١] . وبعد أن تعترف له بأن ما عندها من معلومات عن شخصه ، قد استلتهُ من « توم » ، ذلك « الثرثار الكبير » ، تأخذ في البَوْح له : « كان الأسى الدفين الذي يبدو على وجهك يؤلمني . . لأنني أعرف معناه . . أنت وحيد مثلي (. . .) أريد فقط أن تهتم بي ولو قليلا (. . .) كل ما أريده هو أن أجد عندك ما افتقدتُهُ عند الآخرين من حنان (. . .) أريد أن أصبح

---

(٩) « الكافيتريا » ، تعني المقهى ، ولكن تُقدّم فيها وجبات طعام أيضا ، وبخاصة عندما تكون ملحقةً بمؤسسة .

(١٠) الصواب : فتاةُ « أمس » وحفلةُ « أمس » ، للدلالة على اليوم السابق ، وبتعريف الكلمة ، « الأمس » ، تمتدُ دلالتُها إلى ماض أبعد .

(١١) ارتماءُ المرأة الغربية على الشاب العربي ، في الرواية ، « مطبٌ » وقعتُ فيه في قصتي القديمة « ضيف من الشرق » (دار الآداب ببيروت ، ١٩٥٩) ، التي أعدتُ كتابتها مطوّلةً تحت عنوان « الظمأ والينبوع » (الدار ذاتها ، ١٩٦٤) .

مثلك . . مكتفية بذاتي . . قادرة على أن أتصرّف . . أن أقول لا . . وأن أقول نعم . . وقتما أريد » (ص ٢٣٦ ـ ٢٤٠) . ورغبةً من هشام ، الطبيب ، في « أن يضع حداً للموقف » ، يدعوها إلى تناول فنجان من القهوة . وفيما هو يهمّ بمغادرة الغرفة وإياها ، يُقْبِل « توم » . وكان من حقّه أن يدهش ـ كما دهشنا نحن ! ـ حتى لقد حدَّث نفسه بصوت سمعتْهُ آذانُنا : « هـذا الشاب سيُصيبني بالجنون [١٢] بتصرّفاته الغريبة . . أمس رفض مراقصتها والحديث معها . . واليوم يستقبلها في الغرفة . . ايه . . » ! (ص ٢٤١) .

والواقع أن ما انعقد بين هشام و « بات » ، كان ضرباً من العلاقة بالغَ الغموض والغرابة . « الفتاة تطمئنُّ إلى هشام اطمئناناً غريبا ، وتُصغي إليه بكل جوارحها وهو يجيب على أسئلتها التي أرادت بها أن تعرف المزيد من المعلومات عن زميلها القادم من تلك البلاد التي ارتبطت في ذهنها بتهاويل مغامرات الصحارى ، والفرسان ، و . . . البترول » . وكان لطيفاً منه أن « يعتبر أنه يُؤدي « عملاً إنسانيا » ، لا أكثرَ ولا أقل ، فهو قد حافظ على « حدود معينة » في هذه العلاقة ، لم يسمح لنفسه ـ ولا للفتاة ـ بتجاوزها قيد شعرة » ! (ص ٢٤٢) .

ولقد تساءلنا ـ ونحن نرى إلى هشام و « ضميره يؤنّبه أحيانا (. . . لأن) مجرد وجوده مع تلك الفتاة هو انتقاصٌ من مكانة زوجته الحبيبة » (ص ٢٤٢) ـ عن تلك « الحدود المعينة » التي « لم يسمح للفتاة بتجاوزها » . فلم نظفرْ بطائل ! ولقد قنِلْنا منه تعليلَهُ ـ في استجابته لصديقته التي أصرّت على « تعليمه الرقص » ـ بأن الزمن كان « عاملاً مهمّا في تحوُّله نحو التكيُّف مع تلك الحياة الغريبة عنه شيئا فشيئا . دون أن يتحلَّل من معتقداته وأخلاقه » (ص ٢٤٤) . ولكن ذلك لم يُمكِّنّا ـ أيضا ـ من معرفة « أبعاد » العلاقة بينه وبين « بات » . ثم رأيناه يحزن حقاً ، ويعتصر الألم قلبه ، ساعة فوجئ بها في الحديقة ـ العربية الأطوار المتقلّبة المزاج » ، كما تراءى لمُساكنه الثرثار « توم » أن « يشيَ » بها ! (ص ٢٤٤) ـ وهي تُعانق شاباً أسمر في ركنٍ من إحدى حدائق الجامعة ! فلا يتمالك هشام نفسه من أن يقول لها قولا يَرْشَحُ سخريةً : « تهانئي الخالصة . . يا آنسة باتريشيا » ! (ص ٢٤٦) . . . ترى ، هل مردّ هذه المرارة كلها ، إلى أنه يمارس هو مع الفتاة هذا القَدْر من الحب ، أو أنه يتمنّى لو يمارسه ، ونحن لا ندري ؟ !

ورغبةً من هشام في أن يُغيظَ صديقتَهُ التي كانت ، « بات » ، يُصادق فتاةً أخرى هي « جين » . والزوجةُ الطاهرة ، في حائل أو في مكة المكرمة ، تنتظر أن « يتقن » زوجُها ـ الذي حرص على السفر وحيدا ـ اللغةَ الانكليزية أيما اتقان !

٤ ـ التكيُّف المستحيل

ليس من شكّ في أن مؤلِّفنا كان واعياً مَهَمَّتَهُ ـ بصفته روائيّاً ـ وعياً كافياً في أثناء رَصْدِهِ لهذه المرحلة ، التي سَلَفَتْ ، من حياة البطل . فليس عبثاً أنه اختار مسألةَ « التكيُّف مع تلك الحياة الغريبة عنه » (ص ٢٤٥) ، قضيّةً يُديرُ عليها حوادثَ سنةِ اللغة في « ماونت بلزانت » ، معطِمَها أوكلَّها . هل كان ذلك ، من المؤلف ، « تمهيداً » لما ينوي أن يُدير عليه ما لَحِقَ من الحوادث في سنوات الرواية التالية ؟ ليس في شأن « تكيُّفه » هو ـ وقد اجتاز التجربةَ بنجاحٍ مقبول على كل حال ـ بل بصدد « تكيُّف » زوجتِهِ القادمة حديثاً إلى هذه البقعة الأمريكية النائية .

كان واضحاً لنا أن المؤلف يُريد للزوجة أن تستعصي على التكيُّف والتأقْلُم مع الحياة المقبلة في العالم الجديد . فبدأ « يُعِدُّ العُدّةَ » لذلك منذ كان هشام وزوجته معاً في حائل يتهيَّآن للسفر . فمع أن هيا كانت « في منتهى السعادة ، وأقصى درجات الفرح والحبور (. . . إلا أنها) كانت تقول (لزوجها) باستمرار : لا يهمني أنني ذاهبة إلى أمريكا أو سواها . . إنني سعيدة لأن وجودك يُسعدني ولأن وجودي يُسعدك . . ولو خيَّرتَني لأخترتُ

(١٢) لعل الأصح : سيُجنّني ، الجنون

البقاء في بلادنا . . فهنا ولدنا . . وهنا عشنا . . وهنا اعتدنا على طريقة حياتنا التي نفخر بها ونعتز » ! (ص ٢٨١) . ثم يعود مؤكدا : « لم تكن هيا كثيرة الحماسة للرحلة المزمعة إلى الولايات المتحدة مع زوجها ، فهي قد ألِفت الجوّ الذي نشأت فيه بحائل (. . .) أما الانتقال إلى جوّ آخر ، كذلك الذي كان هشام يتحدّث عنه ، فلم يكن يروق لها كثيراً ، وازدادت نفوراً منه عندما سمعت أحاديث زوجها ، وتوقّعت أن تجد صعوبة شديدة في التكيّف مع هذه الحياة » (ص ٢٨٢ و ٢٨٣) .

بعد هذا « التمهيد » ، المُحْكَم ، يَشرع المؤلفُ في تقديم ما يَعِنُّ له من ألوان الخلاف بين الزوجين ، منذ وطئت قدما هيا أرض لندن ، وهما معاً في الطريق إلى موطن الدراسة . وقع بينهما « خلافٌ عابر » ، وهما في الفندق ، لحظة همّا بالخروج للاستمتاع بمشاهدة معالم المدينة . هشام لا يريد لزوجته أن تخرج « بعباءتها السوداء » ، مُصِرّاً على أن تلبس « ثوبها الذي كان قد أتاها به من أمريكا خصيصا لذلك . وصعقت هيا بادىء الأمر ، وصاحت به مستنكرة ، فهي لم تعتد الخروج بغير العباءة التي تفخر بها وتعتز » (ص ٢٨٧) . ثم إنها تستجيب « لرغبته ، ولكن الارتباك الشديد كان يبدو عليها وهي تخطو إلى الشارع دون أن ترتدي العباءه ، لأول مرة في حياتها . . . » (ص ٢٨٨) [13] .

كان هشام يذوب رقّةً ووجْداً وحبّاً ، منذ احتوته الطائرةُ ـ هو وزوجته ـ المتّجهةُ إلى لندن . . . فهو لم يعد « مضطرا لأن يبحث عن وجه هيا في الفضاء الرحب البادي أمامه من وراء زجاج نافذة الطائرة » . . . وهو ، كذلك ، إن كان قد حرَمَ نفسه ، في زيارته السابقة للندن ، من مشاهدة معالمها ، « لأنه لم يشأ أن يستمتع بشيء لا تُشاركه هيا إياه ، فإنه ـ هذه المرة ـ قد أقبل على ما تراه عيناه بشغف واهتمام وكأنه يراه لأول مرة » (ص ٢٨٥) . أجل . إذا كان ذلك ما يشْغَل قلب هشام وعقله ، فإن هيا ، على النقيض من ذلك ، كانت تسكُنُها أمور أخرى !

لقد أدهشتها مناظر الهيبيّين « الذين أطالوا شعورهم وأظافرهم (. . .) وعليهم تلك الملابس المهلهلة » ! وإنها لتشعر « بالدماء تتصاعد إلى وجهها وهي ترى إلى فتى وفتاة يتعانقان على حافّة إحدى الحدائق وكأنهما وحدهما في غرفة منعزلة » ! (ص ٢٨٦) . وقد تعاظمت دهشتُها في المقهى لحظةَ رأت « سيّدة » تُقدِّم لهما الشاي ، فقالت لزوجها : « يبدو لي أن هؤلاء القوم لا يحترمون المرأة (. . . إنهم) يَدْعونها تعمل ساقيةً في مقهى يَؤُمّه آلافُ الناس » ! ثم ما لبثت أن أعلنت . « أريد أن أعود إلى الفندق » ! (ص ٢٨٨ و ٢٨٩) .

وساعةَ ضمَّتها وزوجَها الحبيبَ الطائرةُ باتجاه أمريكا ، أخذت تُصارحه بشعورها بعدم الارتياح في لندن ، و . . . « إني لا أستطيع ولا أرغب ، في أن أغيِّر ما اعتدت عليه (. . .) في بلادنا نشعر بالطمأنينة والارتياح . . لنا تقاليدنا ، ونظم حياتنا ، وطرق تصرفاتنا » (ص ٢٩٠) : أنت تريدني أن أتكيَّف « مع هذه الأجواء الجديدة عليّ (. . . ولكني) كنت أشعر وكأنني أكاد أختنق كلما سرنا في الهواء الطلق في لندن » ! (ص ٢٩١) [14] . . . وهشام المحبّ ، يُحاورها ويُطيِّب خاطرها ، « فإن عليه أن يُوَطِّن النفسَ على احتمال هذا النوع من الخلاف ، إلى أن تألف هيا الجوّ الجديد الذي ستعيش فيه ، وعندها سوف تتغيّر ـ كما يتوقّع ـ بصورة تلقائيّة » (ص ٢٩١) .

ولكنه ما يلبث أن يتبيّن ، بعد وصولهما إلى المنزل المُعدّ ، « أن هيا ترفض الاندماج في الحياة الجديدة التي

(١٣) إني لأتساءل . أما كان أحرى بهذين الزوجين السعيدين ، أن يتشاورا ـ وهما في الوطن ـ ويتفاهما ، ويتفقا حول ما تلبسه الزوجةُ من ثياب الخروج ، وهما المقبلان على سفر بعيد وغياب طويل ؟ !

(١٤) وحدثني ، وأنا أقرأ هذه الأسطر ، أخيلّ على هامش الكتاب ، هل تريدين أن ننقل لك عالم المملكة إلى لندن والولايات المتحدة الأمريكية ، يا هيا ؟ ! فلماذا اقترحتِ على هشام الابتعاث إلى الخارج ، وأخذت عليه [illegible] إلحاحا ؟ !

أخذها إليها ». أبلغها ، ذات مساء ، أنهما ذاهبان معاً إلى سهرةٍ في بيت زميل سعودي متزوج . . . فإذا هي **تُصرّ « على أن ترتدي ملابسها الطويلة التي اعتادت عليها (وأن تلفّ) رأسها بشال أسود »** ، ليس هذا فقط ، بل : « أجلسُ أنا وزوجةُ زميلكَ هذا في غرفة ، وتجلس أنت معه في غرفة أخرى » (ص ٢٩٢) . وفي نهاية الجدال ، يتناول هشام سمّاعةَ الهاتف ، ويعتذر لصديقه عن عدم قيامه بالزيارة !

لقد أخذت هيا ـ التي أرادها زوجُها حبّاً ونعيماً ما أقام في « بلاد الغربة » ـ تُثير له من المتاعبِ ما وجد نفسه عاجزاً عن أن يجد له حلاً . وهاهو ذا يضطرُّ ، مرةً ثانية ، للذهاب إلى حفلة يُقيمها زملاء له ، دون أن يصحبها معه ، وذلك بعد أن رآها ترتدي زيَّها ذاك ، بما فيه « اللفّة » على الرأس [15] ، قائلاً لها دون أن يقوى على كظم غيظه : **« ألا تدرين (. . .) أنك ستكونين موضع سخرية بهذا اللباس ؟ »** (ص ٢٩٩) . . . ويتركها دامعةَ العينين ، ليجدها ، في عودته ليلاً ، وهي وراء الطاولة تتابع درس اللغة الانكليزية ، فتوقف آلة التسجيل ، وتبتسم قائلة بمرح : « الحمد لله على السلامة » ! (ص ٣٠٢) .

ومن عجبٍ أنّا رأينا هذه « المشاجرات » تستغرق « هشام » ـ طالب الدراسات العليا ـ استغراقاً ، حتى لم يعد يَعنيه اصطحابُنا ـ نحن القراء ـ إلى خارج « عشّ الزوجيّة » [16] ، الذي أشفقنا عليه أن يتداعى يوم قذف الزوجُ في وجه زوجته بهذه العبارة : « هل تعتقدين . . . أنه قد يكون من المناسب أن . . أن **تعودي إلى المملكة ؟ »** (ص ٣٠٦) .

ولكنّ شجاراً صعباً ، آخر ، كان ينتظر الزوجين . **بدا لنا هشام وقد « يئس نهائيّاً من تغيير موقف »** زوجته في شأن لباس الخروج . فقَبِلَ ، ذات مساء ، أن **يصطحبها ، وهي في زيّها التقليدي ذاك** ، إلى منزل أستاذه « الدكتور باركر » ، ثم إنه يعترف ، بينه وبين نفسه ، بأنها « **كانت رائعة كلّ الروعة** بملابسها ، وخصوصا اللفّة الأنيقة التي أحاطت رأسها بها » ! (ص ٣٠٨) . ولكن تلك السهرة ما كان لها أن تمضي على خير : لقد « **شعرت هيا بقشعريرة باردة تسري في** جسدها حين لمس الدكتور يدها مصافحا ، ثم صعقت حين رآته **ينحني انحناءة قصيرة ويجذب يدها إلى شفتيه يريد أن يقبّلها ، فأجفلت ثم سحبت يدها بسرعة »** (ص ٣٠٩) . وفي البيت ، يصرخ هشام معاتبا : « هل هذا تصرُّف يليق يا ست هيا ؟ تسحبين يدك من يد الرجل ، وهو في مثل عمر أبيك ، بتلك الطريقة ، عندما أراد أن يقبّلها ؟ » ، وهيا تردّ بـ « عتابٍ مضادّ » : وأنت « كيف تُقبِّل يد تلك المرأة ، زوجته ؟ » ! (ص ٣١١) . . . ويعلو البكاء ـ بكاؤها ـ وهي تتوسّل : « أرجوك يا هشام . . **أرجوك لا تدفعني إلى هاوية الاختيار بينك وبين طبيعتي وأخلاقي** التي نشأت عليها . . » (ص ٣١٢) [17] .

وفي تصاعدٍ ، مُحْكَمِ الحلقات ، لهذه الخلافات المتفاقمة ، يصحب هشام زوجته ـ التي ما تزال تواصل دراستها للانكليزية في البيت بهمّة ونشاط ـ إلى حفلة كبرى قد أقامتها الجامعة ، لطلابها وللمتخرّجين فيها ، تحت خيام نصبتّها في حدائقها . وإذا كان الدكتور باركر قد همَّ بتقبيل اليد فكان ما كان ، فإنّ ما وقع ، الآن ،

---

(١٥) ليت المؤلف كان قد استبدل بهذا اللفظ المحلي ، « اللفّة » ، الذي تكرر وروده في الرواية ، لفظاً آخر فصيحاً واضح الدلالة . فاللفّة ، في دارج سورية ، هي ما يُلَفُّ من رقيق القماش حول الطربوش ونحوه مما يعتمره الشيوخ ، والكلمة ذاتها تعني ، في دارج مصر ، القِماطَ الذي تَلُفّ فيه الأُم وليدها .

(١٦) أحسب أننا لو تصوّرنا أن هذين البطلين ، المتنافرين ، يعيشان في بقعةٍ من العالم غير « ماونت بلزانت » ، أو خارج الولايات المتحدة الأمريكية ، لما بَدّل ذلك من الأمر شيئا . فنحن لم نعرف ، في طول الرواية ، شيئاً عن هذه المدينة الجامعية ، ولا في أية ولاية تقع من الولايات المتحدة البالغة اثنتين وخمسين ولاية ! لا ولا عرفنا ـ حتى الآن ـ شيئاً عن الجامعة التي يفترض أن بطلنا المُمَام يتردّد عليها ، ولا رأيناه يروح إلى محاضراته ويغدو !

(١٧) كنت أتمنى على الدكتور باركر ، وهو الأستاذ الحصيف « الذي خبر الناس وقابل آلافاً منهم خلال حياته في الجامعة » (ص ٣٠٩) ، أن يُوفّر على نفسه ، وعلى سواه ، مشقّةَ محاولةِ تقبيل يد سيدة شرقيّة ، قد دخلت بيته ملتفّةً بثوب يشملها من قِمّة الرأس حتى أخمص القدمين !

هو أنّ أحد « زملاء هشام في الكلية ـ وهو من احدى بلاد أمريكا اللاتينيّة ـ » يتقدّم فيصافح هيا ويستبقي يدَها في يده ، قائلاً : « **هل تسمحين يا سيدتي بمشاركتي هذه الرقصة ؟** » ، فكان لا بد من أن تبادر بطلتُنا ، الغيورُ على شرفها ، إلى سحب يدها ، قائلةً بإباء : « **آسفة . . لا أستطيع . .** » ! فوجيء الشاب « بحركة هيا وجوابها ، فجمد في مكانه بغير حراك (. . . ثم) ابتعد وهو يشعر بشيء من الخجل . . . » (ص ٣١٦ و ٣١٧) [١٨] . وما وقع ، بعدئذ ، أن الدكتور باركر لاحظ ، مصادفةً وهو في الحفلة أيضا ، ما كان من أمر الشاب اللاتيني والسيدة العربية ، فأمر الشابَّ ، طالبَهُ ، بأن يعود إلى السيدة حالا ويعتذر منها ، فإنها « أول امرأة أقابلها في حياتي وتفرض احترامها عليّ » . ويعمل الشابّ بالنصيحة : يعتذر من هيا ، ثم يتّجه ببصره إلى هشام : « قال لي الدكتور باركر إن عليّ أن أعتذر للسيدة . . وأنا آسف جدا . . ولم أكن أعلم . . » (ص ٣١٨) .

والواقع أن « اعتذار » الشابِّ لهيا ، ذلك الاعتذار الذي أملاه الدكتور باركر ، كان له دوره في « **تعزيز** » **مواقفها تجاه زوجها** ! فقد هتفت تلك الساعةَ قائلةً : « **عظيم . . لقد أدرك إذن أنه قد ارتكب خطأ . . هذه نتيجة طيّبة . .** » ! (ص ٣١٩) ، ثم بدت له « **وكأنها قد حقّقت إنجازاً عظيما** » (ص ٣٢٠) .

والذي كان ، بعد تلك الليلة ، أن كلاً من الزوجين حرص على ألا يتطرّقَ إلى ما حدث في هذه الحفلة : كان هشام يخشى أن يتفاقم سوءُ التفاهم ، على حين **اعتقدت هيا أنها « قالت كلمتَها بصورة عملية »** ! (ص ٣٢٢) .

٥ ـ « جين » والرسوب

لقد كان استرسالُ هشام في خواطره مع نفسه ، واستعادتُهُ لما وقع بينه وبين زوجته من خلاف ، يتخلّلُهُ « صراخٌ . . وغضبٌ . . ودموعٌ . . » وإصرارٌ من كلٍّ منهما على موقفه . . . وذلك ما حمله على أن « **يعترف** » **لنفسه بأن مواقف زوجته كلّها « قد انتهت إلى انتصارها عليه أجل . .** لقد انتصرت عليه وهو الرجل (. . .) وهُزِم أمامها مع أنه الأقوى » ! (ص ٣٢٥) .

و « أعترف » ، من جهتي ، **بأني توقّعتُ من بطل** روايتنا ، مع « جُرح الكبرياء والكرامة الدامي » هذا ، أن يعمد إلى التخلّي عن زوجته ، ذاتِ الجمال والرقّة والنعومة والحبّ ، والتي « تتحوّل في مثل ومض البرق إلى كتلة من الصلابة والرفض إذا ما حاول أن يجعلها تتكيّف ولو بعض الشيء مع الجوّ الذي يعيشان فيه » (ص ٣٢٤) . . . توقّعتُ أن « يحلِفَ يميناً بالطلاق » ـ مثلاً ! ـ ويُعيدها إلى الوطن ، إلى بيت أهلها ، مهجورةً مقهورة . . . ذلك تصرُّفٌ ـ إن فعله هشام ـ سيكون قاسياً وجائرا ، ولكني توقّعتهُ ! إلا أن هشام خيّب توقّعي ـ وحسناً فعل ! ـ وتصرّف على نحو آخر !

يلتقي ، ذات يوم ، في أحد أروقة الجامعة ، **بالطالبة « جين »** ، التي لم يكن قد التقى بها منذ نهاية السنة الدراسية الفائتة . شدّ على يدها بفرح بالغ .

« ـ هشام ؟ غير معقول . . هذا أنت ؟ » .

« ـ جين . . كم أنا سعيد بهذا اللقاء . . إلى أين تذهبين ؟ » (ص ٣٢٦ و ٣٢٧) .

وبدلاً من أن يتابع ، بعد هذه المحاورة ، طريقَهُ إلى محاضرة اليوم ، **ارتدّ مُرافقاً إياها ، وقد « تأبّطتْ ذراعه** في طريقها إلى الكافتيريا ، وفي أعماق هشام شعور عميق بالأسف ، فتلك أول مرة في حياته يفضّل فيها شيئاً ما على واجباته الدراسية » ! (ص ٣٢٧) [١٩] .

أخذت جين ، وهما في الكافتيريا ، تثرثر ، وهشام منصرفٌ عنها ، « **فقد أدهشه وأحزنه ، عزوفُهُ عن**

---

(١٨) أحسب أنّ الشابّ ، الذي يتقدّم إلى فتاة طالباً مرافقتها ، معرّضٌ لأن يتلقى اعتذاراً على نحو أو آخر ، فليس له أن يُفاجأ ، أو يشعر بالحرج أو الخجل . . . إلا إذا كان « جون ترافولتا » !

(١٩) خيّب البطلُ ظنّي ، هنا ، مرةً أخرى ! لقد حسبتُ أن « شعوره العميق بالأسف » ، مردُّه إلى أنه أعطى صديقتَهُ الفرصة لأن « تتأبّط ذراعه » . . . ويا لعيبي هيا ، العربيةِ ، تريان !!

الدراسة بتلك الصورة المفاجئة (. . . ولكنه) استمراً تخلُّصَهُ من ذلك الشعور الثقيل بالواجب الذي ظلّ يسيطر عليه طَوال حياته ، وأحسّ بأنه حرّ طليق يستطيع أن يفعل ما يشاء . . » ! (ص ٣٢٧) .

وخرج مع جين من الكافتيريا « إلى الحديقة ، ثم توجّها إلى مطعم تناولا فيه طعام الغداء ، وبعدها توجّها إلى إحدى دور السينما ، ومن ثم ذهبا إلى مطعم آخر لتناول العشاء » (ص ٣٣٠ و ٣٣١) .

وساعة دخل البيت ، وجد هيا ما تزال ساهرةً في انتظاره :

« ـ أين كنتَ إلى هذه الساعة ؟

« ـ كنتُ . . كنتُ مع بعض الأصدقاء . .

« ـ أما كان بوُسعك أن تتّصل تليفونياً وتخبرني بأنك ستتأخر ؟

« ـ فاتني ذلك . .

« ـ هشام . . مالك ؟

« ـ لا شيء . . لا شيء . . » (ص ٣٣٠) .

وبدلاً من أن تثور الغَيْرَةُ في صدر هذه الزوجة ، الشرقية ، التي يتوافر لزوجها قَدْرٌ مُواتٍ من « الاختلاط » في هذا المجتمع الغريب عنها ، بدلاً من أن تُجرِّحَها الشكوكُ وتحملَها على أن تُشعِّب الحوارَ عشرين شُعبةً مع زوجها الذي انتظرتهُ حتى مَوْهِنٍ من الليل ، بدلاً من أن تُحدِّقَ في قلب عينيه مُحاولةً أن تستشفَّ أسرارَ غيابه ، بدلاً من أن « تشُمَّ » ، ما يَنْضو عنه من ملابس ، شَمّاً ، بحثاً عن « دليل » يُؤيِّد شكّاً يَخْفُقُ في صدرها . . . فإنها تقول له بهدوء : « سأُحضر لك العشاء . . إنه جاهز منذ فترة . . » ، فيُجيبها : « لا داعي . . لقد تعشّيت . . » ! فقط ـ تقول الرواية ـ « بدا (لهيا) أن شيئاً ما قد تغيَّر في زوجها . . » ! (ص ٣٣٠) [٢٠] .

لم تُحرِّك الزوجةُ ساكناً ، في تلك الليلة ، لا ولا تحرّكت في صدرها الهواجسُ والظنون في مقبلات الأيام . « ومضت أشهر . . تغيَّر هشام خلالها بصورة لم تعهدها هيا فيه (. . .) فلقد تحوَّل نشاطه السابق إلى خمول ، واجتهادُهُ إلى كسل ، وحماستُهُ إلى ركود . . » (ص ٣٣١) .

تغيَّر هشام على هذا النحو . **فماذا فعلت هيا ؟ إنها « تراقب هذا التحوُّل الفاجع في صمت وألم ، فهي قد** لاحظت ذلك التغيير [٢١] منذ اليوم الأول الذي جاء فيه هشام متأخراً ، ثم تزايد يقينها مع ما رأته من إهمال هشام لدراسته ، وقضائه أغلب أوقاته خارج المنزل ، وقلّة كلامه معها ، وعدم اكتراثه بأن تصحبه كما كان يفعل سابقا » (ص ٣٣٢) . . .

ومع « مراقبة » هيا لهذا « التحوُّل الفاجع في صمت » ، نتساءل نحن القرّاء : كيف ساغ لهذه الزوجة **ألا تتّخذَ من المواقف ما تُدافع به عن حبّها ، ونفسها ، وكيانها ، وما تُنقذ به زوجَها نفسه ؟ ! وههنا** يتدخّل المؤلفُ مفسِّراً ومُسَوِّغا : « كان حريّا بأية زوجة ، غير هيا ، أن تثور لهذا الوضع ، (. . . وأن . . .) وأن تناقش زوجها الحساب ، (وأن تسأله . . . أن تُنبّهه . . .) ولكن هيا لم تفعل من ذلك شيئا قط . . . وكان موقفها هذا نابعاً من فهم عميق لنفسية هشام وطبيعته ، فلو أنها طلبت إليه أن يُفسِّر مسلك هذا لغضب وتمسَّك به أكثر فأكثر . . » ! (ص ٣٣٢) .

« لقد كثر تغيُّبه عن المحاضرات . . وأهمل واجباته الدراسية . . وبات يقضي وقته في الكافتيريات ، والمطاعم ، ودور السينما ، والحدائق . . وكانت جين هي صديقته المفضّلة التي لا يفارقها . . . » (ص ٣٣٢) . . . وظللنا ، نحن ، نجهل أبعادَ العلاقةِ بينه

---

(٢٠) أشهدُ أن هذا ليس بتصرُّفٍ يصدر عن « زوجة عربية تعيش بصحبة زوجها في بلاد الغرب » ! وهو ، أيضاً ، لا يُشبه تصرُّف امرأة « غربيّة » تعيش مع زوجها في مجتمعها الغربي ذاته !!

(٢١) الصواب : « التغير » .

وبين هذه « الصديقة المفضّلة » ، كشأننا في علاقته القديمة مع « بات » !

وإنما كان تفسيرُ المؤلف وتسويغُهُ ، مقدِّمةً لنتيجةٍ هي : « رسوب » هشام في نهاية سنة الماجستير الأولى ! فهاهو ذا يتلقّى رسالةً من الملحق التعليمي تقول : « . . . نُشير إلى المعدلات الضئيلة التي « حقّقتها » خلال « الفصل الدراسي » [٢٢] المنصرم . ويؤسفنا أن « نبلغكم » أن « بعثتكم » تُعتبر لاغية ، ونأمل مراجعتنا خلال أسبوعين من تاريخه لاتّخاذ الترتيبات اللازمة « لعودتك » إلى المملكة وطيّ « قيدك » من كشوف المبتعثين السعوديين في الولايات المتحدة ، و « لكم » تحيّاتنا . . . » [٢٣] . (ص ٣٣٣ و ٣٣٤) .

وإنما كان هذا الرسوبُ ، أيضاً ، مقدِّمةً أخرى لنتيجةٍ تتلوها قد عَمِلَ المؤلفُ لها جاهداً : أن يمنح هيا دورَ المُنقذة الشجاعة ! وهو دورٌ ، فيما أرى ، مُحْكَمٌ بارع ، ويَرْشَح ـ في الوقت ذاته ـ رقّةً وعذوبة .

لقد عمدت بطلتُنا إلى استثمار ذكائها على أحسن وجه ، وذلك عندما بادرت ـ وقد غادر زوجُها البيت يائساً محطّماً ـ إلى الاتّصال الهاتفي بالملحق التعليمي في نيويورك ، وعرضت عليه رغبتها في أن تلتحق بالجامعة ، في أحد معاهد الـ « جونيور كوليج » ، أملاً في الحصول على شهادة جامعية [٢٤] . وقد أجاب الملحق بأن لا شيء يمنع من ذلك ، بل إن الجهات المعنيّة ترحّب بأن تستفيد زوجات المبتعثين من أي دراسة يبتغونها . . . (ص ٣٤٢) . وهكذا تصبح هيا « الطالبة المبتعثة » ويغدو زوجُها لها مرافقاً ، فيتاح له بالتالي متابعةُ دراسته !

فما كان وَقْعُ ذلك على هشام ؟

في البداية ، لحظة دخوله البيت ، تناهى إلى سمعه صوتُ هيا وهي تُغنّي في سعادة . . . فكان لا بد من أن يدهش ! (ص ٣٤١) . فلما « زُفَّتْ » إليه خبر أنها ستلتحق بالجامعة طالبةً نظاميّة ، مما يُمكّنه هو من البقاء في بلد الدراسة ، تملّكه الاعجاب بزوجته ، ومدّ نحوها ذراعيه : « أتمنّى أن أعرف : ممّ خُلقتِ أيتها المرأة المدهشة ؟ (. . .) إنك أكثر مما أستحق » ! (ص ٣٤٣) .

على أنه ، منذ « شرع في اتّخاذ الاجراءات النظامية تجاه وضعه الجديد كَمحْرَمٍ مرافِقٍ لزوجته ليس غير » [٢٥] ، أخذ ينتابه « شعورٌ بالمهانة » ! وكم ودّ لو يعود إلى الوطن ويضع حدّاً لهذا « الاذلال » ! ولكنه إن « عاد إلى المملكة فاشلا خاسرا . . كيف يستطيع أن يرفع عينيه في وجه أبيه وأهله ؟ » ، كيف يواجه ناصراً وأباه ؟ رؤساءه ؟ زملاءه في العمل ؟ ! . . . وراضَى نفسَهُ مقنعاً إياها « بأنه يدفع ثمن غلطته » ، وبات عليه « أن يستجمع كل ما آتاه الله من قوة لكي يُصحِّح الخطأ ، ويُعيد حياته إلى مسارها الطبيعي » (ص ٣٤٤ و ٣٤٥) .

وكان أول ما واجهه من الصعوبات ، أو الحرج ، أن ينطلق ذات صباح بسيارته ، وهيا إلى جانبه « وقد ارتدت ثوباً طويلا وغطّت رأسها بلفّة سوداء فلم يظهر منها سوى كفّيها ووجهها . . » (ص ٣٤٦) ، ليقوم بتوصيلها إلى الجامعة في أولى محاضراتها ! يحدِّق أمامه صامتاً ، فتسأله زوجته : « يا باشمهندس . . ألا تُزوِّدني بنصائحك الغالية وأنا أدخل هذه المرحلة المتقدّمة

(٢٢) المقصود هو « السنة الدراسية » . وأما « الفصل » فقد ينصرف اللفظ فيه إلى جزء من السنة الدراسية .

(٢٣) يُلاحظ أن ثمة « اضطراباً » في نص الخطاب ، فهو يُخاطب المرسَلَ إليه بضمير « الجمع » تارةً وبضمير « المفرد » تارةً أخرى .

(٢٤) يُعرِّب قاموسُ « المورد » للبعلبكي مصطلح Junior college بـ « كليّة الراشدين أو الراشدات » ، ويمضي في تعريفها : هي « معهد عالٍ مدة الدراسة فيه سنتان ، ويشتمل على صفّين معادلين للصفّين الأول والثاني في كليةٍ تتكوّن فيها الدراسة من أربع سنوات » . وفي سورية ، تُسمى مثلُ هذه المعاهد الجامعية « المعاهد المتوسطة » ، ويَلحَق كلٌ منها غالباً بالكلية التي يُشاركها المعهدُ في تخصُّصها النوعي .

(٢٥) الأصل في مصطلح « مُحْرِم » ، أنه حق يُؤذن للمرأة المسلمة بأن تعمل موظفةً في المملكة العربية السعودية ، يتوجّب أن يُرافقها واحد من « محارمها » (ممن لا يَحِلّ لها الزواجُ منه : أب ، أخ ، عم ، . . . الخ) ، ثم شمل هذا المصطلحُ كلَّ « امرأة » يمكن أن تُرافق الموظفة بديلاً عن المحرم . ووجهُ الطرافة ، في استخدام هذا المصطلح في الرواية ، أن « الزوج » نفسَهُ تحوّل إلى « مُحْرِم » !!

من الدراسة ؟ » ، فتصدر عنه أحلى إجابة : « أنا أنصحك ؟ إنك قادرة على أن تنصحي قبيلةً بأكملها . . إنني لا أخاف عليك أبدا . . الخوف هو على من يتعرّض لك » ! (ص ٣٤٧) .

وتنجح هيا بعد عام . وينجح هشام (ص ٣٥٣) .

وفي العام التالي ، تحصل هيا على شهادتها في آداب اللغة الانكليزية وتتخرّج (ص ٣٥٣) . وينجح هشام أيضا .

ثم يتخرّج هو بعد عام آخر (ص.٣٥٩) .

وبذلك تبلغ الرواية . . . نهايتها .

٦ ـ خاتمة

بهذا العرض ، الذي لم يَجِيء وجيزاً ، المقترنِ أحيانا بالنقد ، نكون قد تبيّنّا معالمَ الرواية كلّها ، لم نتجاوز إلا التفاصيل التي نظنّ أن لا طائل وراءها .

قلتُ : التفاصيل ، وفي البال ـ قبل أن أنسى ! ـ أن محمد عبده يماني قد أغفل في روايته ـ أحياناً ـ مواقفَ فلم يرصدها ، وشخوصاً لم يرسمها ، وشؤوناً وشجوناً تخطّاها ، وهو بصدد رواية قد أرادها أن تُسجّل التفاصيلَ والجزئياتِ إلى حدّ الاسراف .

نحن ـ مثلا ـ لم نعرف شيئا عن الجامعة التي انتسب إليها بطل الرواية « هشام » في الولايات المتحدة ، ولا التخصُّص الذي اختاره ، راسباً فيه أول الأمر ثم مستأنفاً دراسته بنجاح ، وكذلك جهلنا كلّ شيء عن المدينة التي فيها أقام : معالمها ، شوارعها ، وهل أقول : واسمها أيضا ؟ تلك المدينة التى سلخ فيها هشام سنواتٍ خمساً من عمره ، شاركته الزوجة منها أربعا !

أكثر من خمسة أعوام زوجية ، لم يُشِر المؤلف خلالها إلى أن الزوجة « هيا » قد أنجبت ، أو أرضعت ، أو حملت ، ولا وردت على لسانها ، أو في خاطر زوجها ، كلمةٌ أو فكرة عن إنجابٍ ، أو عن طفل وجنين !

وفي أعوام الغربة كلها لم نرَ هشاماً يجلس ليخطّ رسالةً إلى والده ، أو إلى زوجته عام كان بعيداً عنها وهي في الوطن ، ولا رأيناه يتلقّى رسالةً منها في يوم من الأيام فيُسرع إلى فضّها ليلتهم بعينيه أسطرها بلهفة المشتاق !

والشقيقة الحبيبة « رجاء » ، التي بدت ، في مرحلةٍ أولى من مراحل الرواية ، حريصةً أبلغ الحرص على أن تخطب لشقيقها إحدى صويحباتها . . . ماذا وقع لها على مدى هذه السنين ؟ لِمَ لَمْ تتزوج ؟ ولماذا توقّفتْ في دراستها عند حد ؟

ولن يفوتني أن أُشير إلى أني لم أحسَّ ، وأنا أطالع الرواية ، بـ « عسكريّة » المهنة ـ إن صحّ منّي التعبير ـ التي اختارها هشام لنفسه ، ولا بعمله « الهندسيّ » !

وأخيراً إن رواية « فتاة من حائل » ، مع ما في سلوك بطلها من نزعة إسلامية ، قد خَلَتْ من نقدٍ لأحوالٍ وأوضاعٍ ونظم ، كانت تستحق من المؤلف أن يتوقّف عندها وقفاتِ المستأني . لقد بدا لنا وكأنه عاقدٌ « مصالحةً » من نوع ما مع الواقع وكلّ معطيات المحيط .

ورداً على تساؤل متسائلٍ ، بعد أن يكون قد قرأ هذه الصفحات : « طيب ، فماذا أبقيتَ من هذه الرواية ؟ » ، فإني أمضي إلى القول :

إن « فتاة من حائل » ما كانت لتطمح إلى أن تُعَدَّ بدعاً بين الروايات العربية . ولكنها تُشكّل ـ ولا ريب ـ خطوةً إلى الأمام في مضمار الأدب الروائي الذي يكتبه مؤلفون مجتهدون في أرجاء الجزيرة العربية . وليس يَعيبها أنها لم تُحقّق كلّ ما يصبو إليه القارىء ، أو الناقد ، من القيم الاجتماعية والجمالية ، فبحسبها أنها قالت ما كان يجول في خاطر مؤلفها ، أيام كتابتها ، من المعاني والفِكَر ، ورصدت ما قدرت على رَصده من المواقف ، ورسمت ما استطاعت . رسمه من الشخوص ، وذلك كلّه بلغةٍ سليمة وديباجة لم تُعوزها النصاعة . . . تاركةً ما فاتها تحقيقُهُ إلى أعمال أخرى يكتبها المؤلف لاحقاً ، أو يكتبها زملاء معاصرون له ، أو أولئك القادمون على الطريق .

لما « فتاة من حائل » إلا لَبِنَةٌ قد وضعها محمد عبده يماني في موضعها ، من صَرحٍ يجري تشييدُه للرواية الطموحة في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير .